الذكرى الأولى :

شكيب الشاعر

للشيخ محمد رجب البيومي

— ٢ —

« لو لم يكن شكيب كاتباً فريداً لكان شاعراً مجيداً ؛ فهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى »

النفلوطي

كان الجو الأدبي في مبدأ هذا القرن بمصر يبشر بمستقبل باسم تزدهر فيه فنون الأدب ، فهناك مدرستان قويتان للنثر وللنظم يتزعم الأولى محمد عبده ويقود الثانية سامي البارودي ، وفي تلامذة المدرستين أشبال فتية تقوى وتشتد بمرور الزمن ، وقد اتخذت من الصحافة ميداناً فسيحاً تتراكض في جهاته ، فتركت وراءها دوياً رناناً جعل الأنظار تتطلع إلى سماء الصحافة المصرية معجبة بأهلتها الجديدة ، تلك التي أخذت تتكامل وتتزايد حتى أمست بدوراً ساطعة تبعث في العقول ضوءها اللماح ، وتنشر في النفوس إشراقها اللامع ، وانظر إلى آثار شوقي والنفلوطي وحافظ والمويلحي وسائر من تخرج في المدرستين السالفتين ، فإنك واجد ما حدثتك عنه من تألق وسطوع .

ونحن لا نعجب — والحالة كما وصفنا — إذا رأينا الأمير رحمه الله يؤثر الصحافة المصرية بنثره ونظمه ، ويزور وادي النيل بين الفينة والأخرى ، متصلا بأدبائه الذين يتفردون معه على دوحة واحدة ، ومن هنا كان أمير البيان ذا صلة قوية بجملة الأقلام في مصر ، يؤثرهم على نفسه ، ويؤثرونه على أنفسهم ، وطالما اشتبك في حوار أدبي عفيف مع عشاق الأدب والمعرفة ، فكان ذا الحجة الدامغة ، والرأي الفاصل .

ونبادر فنسلم أن شكيباً كان يهتم بالنثر أكثر من اهتمامه بالشعر ، لأنه فوق مكانته الأدبية سياسي مجاهد ، له رأي ينفح عنه ، وعقيدة يبثها في أمته ، والسياسيون في حاجة إلى امتشاق القلم كل يوم ، ليعلم الرأي العام ما يدعون إليه ، فلو أنه اتكل على الشعر وحده ، لاستعصى عليه في بعض الأحايين أن يبرز رأيه في وضوح ، فكان لا بد من الاعتصام بالنثر ، حتى يفهم عنه الجمهور ما يريد .

وأنت حين تطالع أشعاره عامة ترى عليها سمة التسرع والعجلة ، لأنه يترجم عن عواطفه بدون تكلف ، وله من جهاده ما يشغله عن التفكير في معنى غريب أو تشبيه نادر ، كما يصنع عبيد الشعر في كل زمان ومكان ، على أنه مع ذلك مطبوع على التصوير الفني ، والديباجة الشرقة ، واللفظ الموسيقي .

وإذا أردت أن تنظر لشكيب كشاعر متأنق ، فاقرأ مساجلاته مع الشعراء ومعارضاته لأقرانه الأفذاذ ، فهو حينئذ يحرص على أن يكون معهم في درجة واحدة — على رغم فراغهم واشتغاله — فتراه يغوص على المعاني الفائقة ، ويتفنن في التراكيب الممتازة ، ويطير مع الخيال في آفاقه الشاسعة ، وإليك قصيدته :

هل لسان أقواله الإلهام ... وبيان آياته الأحكام ؟

فإنه عارض بها قصيدة شوقي :

رضي المسلمون والإسلام ... فرع عثمان دُمْ فذاك الدوام

فكان شكيب رائعاً مبدعاً ، يسوق معانيه في تسلسل وانسجام ، حتى استطاع أن يوازي أمير الشعراء في دقته وبراعته ، ومن العجيب أنه يتواضع أكثر من اللائق فيقول في قصيدته :

أو أعارض فتى القريض فما عا ... رضَ ورد الحدائق القُلام

وأحب أن ألفت القراء إلى قصيدة أخرى من هذا النوع ، أنشدها الأمير في حفلة خيرية أقيمت بمصر لمعاونة مجاهدي طرابلس الغرب ، وكان من شعرائها شوقي ومطران وشكيب ، وقد قرأت قصيدة الأمير فوجدته أكثر إبداعاً من غيره ، فقد كان نسجه عباسياً ، وخياله عربياً يحلق بك في أجواء حوّم فيها أبو تمام والمتنبي ، ويريك كيف تكون براعة المطلع وقوة الأداء فهو يقول :

سلا هل لديهم من حديث لقادم ... من الغرب يروى فيه غلة هائم

وهل نظروا من نحو (برقة) موهنا ... فلاح لهم منها بريق الصوارم

تألّقَ في ليلي ظلام وقسطل

فتنشقُ نحب الدمع من طرف شائم

مواطن إخوان تلوا من الردى ... كؤوساً تساقوها بملء الحلاقم

تهجم فيها الصدر مهاجماً فجاء دبيب اللص في ليل قاتم
ولين في إقدامه من إهابه وهل يخدع الإنسان لين الأراقم

ثم يمضي بعد ذلك فيصف أراب (رومة) متهكما. ويمدح ضراغم هاشم معجباً وهو في نظمه يجلجل جاجلة غريبة، ويأتي بالحكمة فذة رائعة كأن يقول:

وما طال نوم السيف إلا تنبهت عيون الدواهي منه عن جفن نائم

وللقارىء أن يحكم بهذه القصيدة على شاعرية الأمير الناضجة وقريحته المتوقدة، ولعله يتساءل معي أي مستقبل كان ينتظر الأمير في عالم الشعر لو صرف كل همه إليه كما شغل شوقي وحافظ وأي منزله يحتلها بين شعراء العربية الخالدين.

وتعجبني علاقة شكيب بزملائه الشعراء فقد كانت ترضي أصحاب المثل العليا في الأخلاق، فهو لا يعجب بقصيدة يطالعها في الصحف إلا ويسارع إلى تقريظها بما تستحق من ثناء، ونحن نتلمس الآن هذه الروح الطيبة، فلا نجدها في معشر من الناس بل نجد ما يناقضها من الغل والحسد، ولكن شكيباً أفلاطوني يقود الناس إلى مدينته الفاضلة فليتهم اتبعوه! !

ولقد كان يتحمل كثيراً من المصاعب في نصرة زملائه الأدباء من كتاب وشعراء فقد وقف أمام اليازجي وهو من هو في زمنه سمة شهرة، وصلابة رأي، ليذب عن شوقي، ويدفع الحملة التي شنها صاحب الضياء عليه، وكلها هنات لغوية، وماخذ صرفية سطعت عليها شمس شكيب فبددت ضبابها الكثيف وكان هذا الدفاع المجيد وشيجة قوية ربطت أمير الشعراء بأمير البيان فأصبح صفيه الأول، وخدينه المختار، وماذا تقول في مودة عريقة مكثت أربعين سنة وهي في كل يوم تنمو وتترعرع حتى خطف الموت شوقياً، فكتب عنه شكيب سفراً قيما ورثاه بقصيدة جمعت إلى صدق اللوعة وحرارة العاطفة براعة الوصف ودقة التعبير، فهو يبرز لك شعر شوقي في صورة لا تنطبق على غيره، ويرسمه أمامك رسماً تتجلى فيه ملامحه وخصائصه فهو يقول

رقت لنغمته القلوب فكيفما غنى بها رقصت على نبراته
فترى الطبيعة قبل نظرته لها غير الطبيعة وهي في مرآته
والحسن يشرق في العيون بذاته وهنا يضيء بذاته وسماته
لو بات يعبث بالشراب أضاف من كاساته حببا إلى كاساته

أو خاض في ذكر الحديث تشابهت أعطاف مستمعيه مع بناته
يلقى على غمرات كل ملمة قولا يزيل أجاجها بفراته
فإذا تحدث بالربيع ووشيه أنساك بالتحبير وشي نباته

فأي وصف هنا لا ينطبق على شعر شوقي، وأي تصور لا يوقفك على خصائص أبياته؟ الحق أن هذا كلام ينبيء عن مكانة قائله الممتازة في عالم الفن، ويدل على الحد الذي وصل إليه رحمه الله في الجودة والبراعة، مما يجعلك تصدق قول شاعر القطرين في رثائه

ولي أحو الأفذاذ من شعرائها في جاهليتها وفي الإسلام
جاري الفحول فلم يقصر عنهمو في حلبة الإبساس والإلهام
شتان بين الشاعر المطبوع في إحكامه واللاقط النظام

* * *

ولقد نظم الأمير في أكثر فنون الشعر من غزل ومديح وسياسة واجتماعيات، بيد أنه كان سباقاً في الرثاء والوصف، وإبداعه في الرثاء ليس بمستغرب منه فقد كان ذا وفاء نادر لأصحابه وإخوانه فإذا فجعه الدهر في واحد منهم لجأ إلى القريض يبثه عاطفته، ويشكو إليه تباريحه. والواقع أن دموعه الشعرية قد بينت لنا كيف يحافظ الصديق المثالي على مودة صديقه، إذ بقي له أصدق وفاء في القرب والنزوح ورثام الأمير لصديقه أمين فكري يؤكد ما نقوله فهو يقول:

حملت له بين الضلوع أمانة لو احتملتها الشم ذابت تصدعا
وأسفيته مني إخاء لو انه أعار الليالي صفوها رقن مشرعا
وما زلت أرعاه على البعد صاحباً وقبلي لنجم الأفق من قد تطلعا
فإن يك هذا الأفق غرب بدره فلا زهرت فيه الكواكب مطلعا
فكم من يد أضحت تدق بأختها وكم شفة باتت تجاور إصبعا
أخلفت ثغراً بعد ثغرك باسماً وطرفا تمنى أن ينام فهجعا
أنا ديك لا راجي الجواب فقد مضى ويا لهف نفسي أن أقول فتسمعا
فلو صادحات الأيك يدرين من نوى لما بتن إلا في رثائك سجعا

وهو في مراثيه لا يكتفي بسرد عواطفه بل يتعرض إلى مناقب الفقيد فيجلوها خلابة جذابة في مرآة شعره، لا كمن يحشد في مراثيه ما شاء من الأخيلة والتصاوير دون أن تتصل

اتصالا وثيقا بسمات القصيد. واقرأ معي رثاءه في عبد العزيز شاويش فستجد المعنى المطابق والوصف الموافق إذ تراه يقول :

وإذا جررت على الطروس يراعة ... بات الصرير براحتيك صليلا
تلك اليراعة ود أكبر قائد ... لو أنها في كفه ليصولا
تتجاوب الآفاق عن اصدائها ... ويرتلون فصولها ترتيلا
لا فرق بين السامعين وقد وعوا ... ما قلته والشاربين شمولا
تندو أرق من النسيم فإن عدا ... خطب غدوت الصارم المصقولا
ليث متى يزأر لأمة أحمد ... (ورد الفرات زئيره والنيلا)

أما شعره الوصفي فقد بلغ فيه ذروة الإبداع ولا سيما حين يتحدث عن المعارك الدامية بين المسلمين والغاصبين ، وقد يكون من المناسب اليوم أن ينظر القارىء إلى قصيدة الأمير في آثار (حطين) فلن يجد فيها بيتاً عادياً مع أنها قد تجاوزت المائة والخمسين ، وقد استهلها الشاعر بوصف نهر الأردن ، مصوراً تعاريجه وتدفقه متفنناً فيما يسميه البديعيون بحسن التعليل ، ثم خلص إلى بحيرة طبرية فقال فيها ما لم يخطر للمتنبي — وقد وصفها قبل ذلك — على بال .

وانتقل إلى المعركة الحامية في حطين بين المسلمين والصليبيين، فتدفق حماسة وخاض حيوية ، وقال في حرارة واندفاع :

كأنما قومنا وقد وثبوا ... شم حصون لها القنا جدر
كأنما قومنا وقد وثبوا ... زعازع للحصون تهتصر
ذاق العدا من سلاف طعنهمو ... كأسا بغير العنقود تختمر
ضراغم أجفلوا وقد نظروا ... حز المنايا — كأنهم حمر
لم يجبنوا ساعة وإن خذلوا ... وإنما الليث دونه النمر
يوم تلاقى الجمعان وانتصف الميزان رهن انحرافه الظفر
عوقب بالأسر موقن بردى ... وجل ملكا مع المعى الدور

وفي هذه الطويلة وصف رائع لبطولة صلاح الدين ، ولا عجب فقد كان الأمير كلفا بشجاعته ومروءته ، وله فيه قصيدة أخرى لا يقولها غير متيم بمآثره ، معجب ببطولته ، ومن في الدنيا لا يخفض رأسه إجلالا لصلاح الدين ؟ !

هذا ويجدر بنا أن نشير إلى قصيدته في آثار الأندلس فقد كانت دمعة حارة سكبها شكيب على الفردوس المفقود ، وليت شعري ما يقول العربي الأبي في إرثه الضائع ؟ ومجده السليب !

وهل تكون قوافيه غير جمرات مشتعلة تتقد في النفوس ، وزفرات ملتهبة تتصاعد من الصدور ؟ على أن أمير البيان قد ملك زمام شاعريته فجاء بالمعنى الرائع والوصف المحكم حين قال في وصف جامع قرطبة وأعمدته القائمة .

تراها صفوفاً قائمات كأنها ... حدائق نبت من جماد مشجر
من العهد الأسنى فكل يتيمة ... لها نسب من مقطع متخير
بدت دونها زرق الطؤوس وأصبحت
لدى الفرى تهزا بالحديد المصفر
ولكن لفضل الفن ألقت قيادها ... فصال بها الصناع صولة عنتر
فبينا هي الصم الصلاد إذا انثنت ... مقاطع جبن أو قوالب سكر
عرائس للتحريم فوق رؤومها ... أكاليل در في قلائد جوهر

ثم يمضي الشاعر إلى نهاية قصيدته رافلا في هذا الوشي البديع ولست محتاجاً — بعد ما قدمته من النماذج المختارة من شعر الأمير — إلى أن أنص على أنه كان حريصاً على مقاومة التيار الجديد الذي يبيح للشاعر ما يند عنه الذوق العربي من تهرب من الوزن ، وتنصل من القافية ، بل إنه ظل طيلة حياته يذب عن القديم بما يملك من بيان ، وله في ذلك أبحاث عديدة يمكنك أن تفهم خلاصتها من قوله التهكمي « ونحن نقول للذين يتكلمون في القديم والجديد ، ويزعمون أن لكل عصر مدرسة على قولهم في الشعر ، إن هذه المدرسة تكون في العلم وتكون في الصناعة وتكون في الزراعة ، وتكون في كل شيء إلا في الشعر ؛ فإن مدرسته هي القلب وطريقته هي النفس ، والنفس البشرية لم تتغير وان تتغير ، فهي هي في أذواقها ومشاربها ، وما سمعنا أن الإنجليز زهدوا في شكسبير لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة ، ولا أن الألمان عابوا جوته لمجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة ، فكيف نعيب المتقدمين ! ؟) وفي اعتقادي أن كلام الأمير جدير بالتأمل والانتباه ، حتى يظهر الصبح لذي عينين .

أي نجم هوى بفقدك يا أمير البيان ! وأي أمل تحطم حين وعتك العروبة باكية إلى مقرك الأخير ! وأي أرج عاطر يفوح من ضريحك الحبيب .؟!

سلام على القبر الذي ضم أعظما ... تطوف المعالي حولها فتسلم

محمد رجب البيومي
كلية اللغة العربية